## قال نسوة

"هذا العالم صنعته تاء التأنيث المتحركة"

عدت وفاطمة إلى البيت بعد جولة في الحقول. كان الفصل ربيعيا. قطفنا بعض الأزهار والورود، وجئنا ببعض الطفيليات النامية في الزرع للبهائم. حملتها فاطمة على رأسها، كما تفعل النسوة، بعد أن حزمتها. وحملت الورود بين يدي. كنا نبدو، في أعين الأهالي، غرباء ومختلفين كأننا نزلنا من كوكب آخر. فهم لا يؤمنون بتقاسم الذكر المهام مع الأنثى. كما لا يعتبرون ذكرا من يعين زوجته في الحقول، ويتقاسم معها الحديث في الطريق. هم لا يميزون، أصلا، بين الرجولة والذكورة. هم يعرفون أن سلطة الذكر لا تعلو عليها الأنوثة.

بعدما وضعت فاطمة حملها، وأعطينا منه للبهائم كي تتقوت، أعددنا براد شاي بالنعناع. تحب فاطمة النعناع البلدي، وتتمنى أن نزرعه، وتعتني به كل صباح.

تطرق جارتنا السعدية الباب بقوة. "داق- داق- داق.. "صوت الباب حاد، وهو يقرع. يخترق طبلة الأذن بعنف. نساء الدوار لا ثقافة لهن في طرق الأبواب، ولا في ولوجها. فإذا وجدن الباب مُشرعا يدخلن ويصرخن باسم صاحبة البيت حتى يبلغن غرفة النوم. هن يؤمنن بالنية، وبعفوية العلاقات.

دخلت السعدية، وجدتنا نشاهد التلفاز. جلست بعد أن سلمت، وشرعت تتحدث بصوت مرتفع جدا. صوتها واضح، لكن كلامها مبهم. لا

فائدة من ور ائه. كلام كله في النميمة وأكل لحوم الناس بالباطل. ونحن لا حول ولا قوة لنا. نتقبل أفكارها على مضض.

تنتقل بالحوار إلى رقعة أخرى فتتحدث عن زوجها وكل تغيير في بيتها. في ما نحن لا تتجاوز اهتماماتنا الفراش. في كل مرة تتحدث فيها، تستحضر بركة الأولياء، وبعض الحكايات والقصص التي تتناص مع ما قر أناه في "كتاب ألف ليلة وليلة". نساء الدوار يتألمن في صمت. يمنين أنفسهن، طيلة السنة، بعودة أزواجهن من المدن الكبرى. لكن الحلم لا يتحقق إلا في مناسبات خاصة مثل الأعياد.

كان عيد الأضحى مناسبة لعودة جل الرجال إلى أعشاشهم بعد تعب وكد وعمل مضن. تتزين النسوة بالحناء والكحل، قبل حلول العيد بحوالي أسبوع، كالعر ائس. لا تفارق الابتسامة وجوههن التي تجهمت لمدة طويلة. يضعن مراهم لتبيض بشرتهن التي صارت سمراء بفعل لفحات الشمس.

يقللن من عدد مرات ترددهن على الحقول، فيكتفين بمرة واحدة في اليوم حتى يحافظن على جمالهن وطراوة بشرتهن. ورغم ذلك، فالرجال رأوا نساء المدن. الجمال الجسدي على الأقل. أما إذا ما قورن بين المجهود المبذول، فالمقارنة لا تسعف.

تقف جارتنا السعدية بخفة بعد أن سمعت طفلا ينبئها بعودة زوجها من السفر. من هول الفرحة، تخرج دون أن تودعنا. تستقبله مطأطئة الرأس دون عناق، لأن ذلك مستحيل حدوثه في الضوء، فإنه يرجا إلى العتمة.

كل نساء الدوار يستحين من أزواجهن، لا يتبادلون العشق أمام العامة كما في المدن، ولا تتشابك أيديهم أمام الملأ خشية افتضاح! وأي فضيحة هاته التي قد تنشأ بين زوجين في الحلال..؟ كل الرجال الذين أعرفهم لا يفعلون ذلك مع زوجاتهن. تذكرت "رقوش" التي لم تسر يوما بمحاذاة زوجها جنبا إلى جنب في الطريق. كانت تعتبر ذلك عيبا. إن المرأة، وبنت الأصل، في نظرها، يجب أن تسير خلف زوجها. فلا هي تتقدمه، فتتولى أمره، ولا هي تسير بجانبه فتفضحه وتتساوى معه! بل "بنت الأصل"؛ هي التي تسير خلفه، دون التوغل في الابتعاد أو الاقتراب حد الاحتراق. تسمع، وتطيع، وتستجيب.. دون اعتراض، أو نقاش، أو جدال...

لا تتطلب النسوة زينة كثيرة، ولا إكسسوارات، ولا أموالا طائلة كي يظهرن جميلات. كل ما يصرفه الرجال أمور بخسة الثمن؛ كعطر بـ مائتين وستون ريالا، وقطعة خشب "مسواك" محل أحمر الشفاه، وحذاء مستعمل بثلاثمائة ريال. متطلبات قليلة وبخسة. وكلما أحضر لها الرجل هذه الأشياء ظنت، بلادة منها، أنه وفى وأدى ما عليه وزيادة. ثم إن هذه الزينة المتواضعة لا تضعها النساء إلا في بعض المناسبات الوطنية، والدينية، والأعراس...

شربت وفاطمة كأسنا الثانية شايا، وشرعنا نناقش قصائد النثر الأخيرة للشاعر الراحل محمود درويش. لكن نفسي الأمارة بالسوء قالت: "لماذا تاء التأنيث المتحركة تعاني، وليس تاء التأنيث الساكنة العاطلة عن عملها!".